"المدرسة (حرمٌ) ولم تكن هذه الحرمة وليدة إنسلالها من الماضي القدسي للجامع أو (بيت العبادة)، بل لأنها لا تؤوي بين جدرانها سوى طالب العلم، وهو كائن، حروبه كلام وصمته قراءة، ولكونه يمثل الطرف الأكثر مسالمة في مجتمعه كان مكان تعلمه، تعليمه وما لا يستباح، من قبل حكومة داخلية أو خارجية، ولكن في ظل سلطة كسلطة البعث الدموي استبيح كل شيء، فمنذ اللحظة التي أدخل المعلم فيها الجيش الشعبي، مع الحرب الأولى، بدأ انهيار حرمة هذا المكان."

الوقوف بين أطلال المدارس

عندما ارتدى المعلم (البدلة) العسكرية!

■

من كان يسرق الكتب المدرسية ويبيعها في شارع المتنبي؟

■

في مدارس الأحياء الشعبية: الطلبة كسبة وليسوا طلبة!

سعيد عبد الهادي

هذا الانهيار الذي تعزز مع الحرب الثانية بتحويل المدارس إلى ثكنات عسكرية خوفا من طائرات التحالف الثلاثيني، إذا حال الجند في المدرسة محل الطلبة، وحين خرجوا منها، لم تستطع هذه المدارس أن تخلع عن أكتافها، الخاكي... لقد تحول المعلم من بعثي إلى عسكري (بعد عسكرة البعث)، وبعد أن كان يكسب هيبته من مهنته، وبالتالي من الناس، أصبح يكسبها من بدلته (أي من السلطة الحاكمة)، حينها سقط العلم وانهارت المدرسة وبالنتيجة أن جملة من الممارسات التي كانت تحدث هي وليدة واقعة أصلية هي (العسكرة)، فإذا ما أردنا أن نعيد بناء المدرسة، علينا أن نفككها بنفس الآلية التي حصلت مع وزارة الدفاع. وهنا الكلام يشمل الجامعة العراقية أيضا، أي المدرسة ككل. لكي نلغي التناظر والترتيبة السابقة.

صوت المعلم

هنا نحن مقبلون على عام دراسي جديد، في زمن جديد، ولكي لا يكون الأمر نمطيا، وتكون السنة القادمة تكرارا للفائتة، توقفنا راصدين المدرسة بين هذين الزمنين، المدرسة ليس بوصفها مبنى فحسب، بل بوصفها محل التفاعل بين السلطة التربوية للمجتمع والسلطة التربوية للعائلة، ولكي لا يحدث تقاطع بين هاتين السلطتين، كان لنا هذا الوقوف، في مكان علينا أن نعيد له الحرمة من جديد.

ولن تعود، ما لم يرتفع صوت المعلم من جديد، نعم إنه ما زال متلعثما، ونحن أيضا شاركه هذا التلعثم، وسنوات طوال فتتنا أصواتنا فيها، حتى صدقنا، إننا بلا أصوات، وها علينا أن ندربها من جديد، وما مشكلة المدرسة، التي نطرحها اليوم، إلا جزء من هذا التدريب.

المدرسة بوصفها مشكلة

المعلمة (نسرين العزاوي) ترى أن مشكلة المدرسة تتوزع على جملة مشاكل داخلية، مشكلة المباني، فمباني التسعينيات زرائب وليست مدارس، بنيت بأرخص المواصفات من ناحية الخارطة ومواد البناء، أما التلاميذ فلا علاقة لهم بالدرس، ولا يمكن أن نضغط في سبيل تحسين وضعه، لأن العوائل ترفض الضغط، وطالما هددنا لأننا عاقبنا طالبا سيئا في درسه وأخلاقه، ثم إن عدد التلاميذ في الصف الواحد يصل في بعض الأحيان إلى (70) تلميذا، كيف نستطيع تعليم هذا العدد في (45) دقيقة، أما الأمر الأخير فيتعلق بالإدارة، إذ أن معظم مدراء المدارس ومعاونيهم لم يطلهم التغيير على الرغم من أنهم بعثيون، وهذا يعني أن مستفيدي العصر السابق، هم الآن فرسان العصر الجديد.

تحدث المدرس (علي داخل)، عن مدارس الأحياء الشعبية، إذ وصف طلبتها بأنهم كسبة وليسوا طلبة، أعداد كبيرة منهم لا تستطيع البيوت الكثكثة، ولا الغرف المؤجرة، أن تربيهم بل تترك تربيتهم للشارع والسوق، المدرس ليس ساحرا والمدرسة لا تصنع المعجزات، علينا أن نعيد تأهيل العائلة، قبل أن نشتم المدرسة ونتحدث عن مشاكلها.

- ولكن المدرس لم يقم إلا بدور سلبي (شيوع الرشوة وبيع الأسئلة، إهمال التدريس واعتماد الدروس الخصوصية) ماذا تقول عن هذا؟

أجاب، أن هذه المشكلة يجب أن تحل من الأساس، وليس حلولا جزئية على طريقة العهد البائد، أي أن نبدأ بكلية التربية، التي لا تخرج إلا أسوأ. يجب أن يعاد النظر في أساتذتها، وفي طريقة القبول فيها، أي شروط قبول (التأهيل) يجب أن تحظى هذه الكلية بامتيازات خاصة.

أما الأستاذ (علي مكلف) مدير مدرسة صقر العرب، فتوجهت إليه بسؤال عن التدريس الخصوصي، وبيع الكتب المدرسية، فأجاب، لم يقع حيف كما وقع على المعلم، الراتب الشهري لم يكن يكفي (معرفا) ليومين، فكيف يستطيع أن يعيش به شهرا، لقد دفع العلم دفعا إلى هذه الممارسات. كلكم يعرف بأن الحكومة شرعت قانونا بقطع الحصة التموينية عن كل من ترك الوظيفة، وضعت هذا القانون من دون أن تفكر بحل للراتب، لقد ظهر صدام على التلفاز يدعو العلمين للعمل بعد الدوام، هكذا يريد العلم أن يبيع السكائر لطلابه في الشارع، إنه كان يريد أن يثأر لجهله من المدرسة، لذا علينا الآن أن نقف إلى جانب هذه الفئة، وأعتقد أن تحسين راتب العلم سوف يحد من كل الظواهر الشاذة التي أفرزتها المرحلة السابقة، أما عن بيع الكتب المدرسية فلا يخرج عما سبق قوله أن الدارس تحتاج إلى مصاريف مستمرة للتصليح وإعادة البناء، ولا يمكن أن تشكل الإدارة كامل العوائل ولاسيما في المناطق الشعبية، حيث أن معظم أرباب العوائل من الموظفين أو الكسبة، وعلى العموم فهذه الممارسة لا تقوم بها إلا بعض الإدارات المدرسية.

مدرس رث الثياب

- ولكن هل الراتب وحده يكفي لتحويل العلم السابق إلى مربٍ؟ هل هذه الزيادة كفيلة بإعادة الكرامة المهدورة؟ هذا السؤال توجهنا به إلى المدرس (حقي إسماعيل) وهو مدرس رياضيات ترك التدريس بعد أن ساءت أمور المدرسة، والآن يسعى إلى العودة، أجاب عن سؤالنا بالقول، إن الراتب نقطة شروع أساسية في تحسين وضع العلم وإعادة بناء التعليم، كيف يحترم مدرس رث الثياب"، لم أستطع أن أبقى في التدريس حينما عرفت أن معيشتي ستكون بيد طلابي، أي أن أتجه أما إلى الرشوة، وإما إلى إجبار الطلاب على الدخول إلى دورات خصوصية، لم أستطع احتمال المدرسة حين أصبح الطالب يساوم الأستاذ على أمور كثيرة والأستاذ يدخل في هذه المساومة دون شعور بالعار. وحين قبل الأستاذ بدور الحزبي للتعسكر داخل المدرسة، أصبحت مدارسنا تدار من قبل العسكر وليس التربين، وأعتقد أنه بعد تحسين الراتب يجب أن تنظف المدرسة من هؤلاء، حينها ستكون هناك مدارس جديدة.

تركنا العلم بين آلامه وأحلامه وتجهنا صوب الوطن.

المدرسة وتصدير العنف

حدثتنا الوطنية (أم حسين) عن أبنائها والمدرسة بالقول، لقد كان العلم يعيش على الطلبة، كنا في كل يوم ندفع لأبنائنا تبرعات عن أشياء بتنا لا نسأل عنها لكثرتها، هذا عدا الهدايا التي تقدم إلى العلم بالمناسبات، والتي أصبحت إجبارية، ثم خرجوا علينا بالدورات، الدارس كانت تتفنن بسحب المال من جيوب العوائل، وحين ترفض العائلة يرسب الطالب.

.. وما نفع العلم، والمدرسة تعطي شهادات فقط، ونحمد الله إذا سلم الأولاد من مشاكل المدرسة!

أما الوطن (سعد زيون) فكان أشد حدة في حديثه، إذ قال بأن الدارس دفعت الكثير من أرباب العوائل إلى منع بناتهم وأولادهم من الذهاب إليها، ليس بغية تشغيلهم، ولكن للحفاظ عليهم، نعم أنت تعلم وتربي وحين يذهب إلى المدرسة يعود عليك بما لا يخطر على بال من الأمور المرفوضة، الكثير من المعلمين والمعلمات اتخذوا الدارس (دكاكين)، عندي خمسة أطفال، راتبي محدود، ووقتي محدود، أي لا مجال لدي لتعليمهم، وبالتالي كانت النتيجة أنهم سارو ابين الرسوب والنجاح دون أن يعرف الناجح منهم أن يقرأ ويكتب بصورة جيدة وهو في السادس الابتدائي. ولا أمل لدي في تحسن المدرسة طالما بقيت بيد الرفاق، فهؤلاء لم تكن رواتبهم قليلة في إتجاههم إلى الرشوة وابتزاز العوائل، بل كانت أخلاقهم قليلة، وأنا أدعو الآن إلى وضع جهاز رقابة على التعليم مثلما فعلوا مع الشرطة، وإلا فإننا سوف نعود إلى شراء القرطاسية والكتب من شارع المتنبي، نعم كانت الكتب تسلم من التربية وتباع في شارع المتنبي، ونحن نشتري الكتب بداية العام الدراسي، وندفع غرامات عنها في نهاية العام الدراسي.. مهزلة!!

شاحنة كتب

هذه الكلمة دفعتني باتجاه شارع المتنبي، فتهمس زمن رجل الأمن وفارشات الكتب المدرسية أرصفة الشارع، حين التقيت (علي) وهو أحد باعة هذه الكتب حدثني عن مصادر شراء الكتاب الدرسي ولم يحصرها بالإدارة المدرسية فحسب، بل أشار إلى جهات أكبر كانت تتاجر بهذه الكتب، وإلا كيف تباع شاحنة كاملة من كتب جديدة إلا إذا كانت صادرة من المخازن مباشرة، أو أن يكون للمديريات دور في هذه العملية. هذا كلام أكده باعة آخرون وهم (مجيد وسامي وأبو جعفر وأبو علي). هكذا خرجنا من شارع المتنبي بتصور مغاير، لقد كانت الكتب المدرسية الحديثة الطبع تباع بالأطنان هنا، وعوائلنا التي لا تجد كتابا نظيفا بين أيدي أبنائها، لا تجد حلا سوى هذا الشارع (الشراء)، ولم يكن مدير المدرسة وحده المسؤول عن هذا الأمر، وإنما عصابات كبرى هي التي تقوم بتهريب الكتاب من المخازن وبيعه في هذا الشارع. في سبيل معرفة طبيعة الآليات التي وضعت لمعالجة الواقع الحالي توجهنا إلى تربية الرصافة الأولى وفي هذا المبنى لم تكن مشكلة الكهرباء لتشكل عبئا لولا الزحام الذي يعطينا صورة كاملة عن حجم المشاكل التي خلفها النظام.

التقينا السيد وليد مسؤول الإعلام التربوي الذي أعطاني موعدا ليوم آخر نظرا للزحام الكبير، وعدت أدراجي، وكنا أوراق التحقيق للقاء ثلاثي مع المدير العام.

علامات استفهام

في انتظار الوعد الذي حدده كنت خلالها تائهة في مدينتي، فلا أرى ترميما لمدرسة، أو تعيينا لتدريسي، أو نشاطا تربويا آخر.

تحبست في الوعد الحدد، لم يكن لدى المدير العام السيد (خالدون) الذي استقبلته في سكرتيرته بالبرود الذي تستقبل به زحام الراجعين، لم يكن له أي علم بالموعد الحدد، (مسبقا) كان كل شيء متوترا في داخل هذه الغرفة، وخضوعا لهذا التوتر تلعثمت أو رأني ورجعت صوب الجريدة، أملا في زمن آخر يستطيع فيه السؤول احترام مواعيده، وليس احترام الصحافة أو جهات الرأي الجمعي.

تركنا الديرية ومشكلاتها وتجهنا صوب وزارة التربية لمعرفة ما ستفعله مع الآلاف من التدريسيين الذين يرغبون في العودة، وما فعلته بعدد إعمار المباني الدرسية، وفي مبنى الوزارة التقينا السيد (إسماعيل يحيى عبد الله) مدير عام الشؤون الإدارية والمالية في الوزارة، فأجابنا عن أسئلتنا السابقة بالقول، يقتضي توفير درجات كافية وإيجاد الغطاء المالي لدفع الرواتب، وحيث أن دفع الرواتب ليس بموازنة وزارة التربية وإنما من قبل المالية وسلطة الاحتلال فيجب في هذه الحالة استحصال موافقتهما لتوفير المبالغ اللازمة للتعيينات الجديدة، وهناك جهود حثيثة في سبيل التنسيق معهم حول هذا الأمر، (أما فيما يتعلق بإعادة الإعمار، فإنه ليس لدينا خبر دقيق، أي إن كل جهة تعمل بصورة مستقلة، قوات الاحتلال، المنظمات الإنسانية، فضلا عن الوزارة نفسها.

القمع والمشاكل

تم إعمار كثير من المباني الدرسية، وما يبقى منها سيتم إعماره قريبا. لم يجر أي تغيير جذري في المناهج، وإنما جرت تنقيحات تخص المواد الإنسانية وبقية المواد العلمية بدون أي تغيير يذكر.

وحين سألناه عن طبع هذه المناهج، أجاب أن أغلبها سيتم طبعه في الخارج، وسيتم توزيع حقائب مدرسية فيها قرطاسية كاملة خلال هذا العام أيضا.

لم يكن النظام السابق معنيا بتحديد المشاكل ووضع الحلول، لقد كان القمع هو الحل الأوحد لكل المشاكل، القمع الذي لم يغرس سوى العنف، في العائلة، في الشارع، في السيارة، في البيت، وفي الدرسة، العنف الذي حطم العشرات من الدارس، وها نحن نستقبل عاما دراسيا جديدا بمدارس خلت من الأبواب والشبابيك، فهل نستطيع أن نتحدث عن مدرسة فيها ساحة نظامية للعب؟ فيها كومبيوتر في الزمن ما بعد الكتابي؟ فيها معلم يخلو من العقد؟ بل هل نستطيع أن نتحدث عن عدد كاف من الدارس؟ هناك مدارس ليس مشكلتها في أن كل شعبة من مراحلها تضم أكثر من (60) طالبا فحسب وإنما أنها تشغل ثلاث مرات في اليوم، لثلاث مدارس، هكذا مبنى واحد تعلوه ثلاث لوحات تحمل ثلاثة أسماء مختلفة، مدارس التلاميذ تخلو من مقاعد! مدارس وظيفة الفراش فيها استلام الراتب فقط، ووظيفة الطالب (الكنس والمسح)!.

مدارس لا تعلم إلا الإنحراف! ثلاثة أطفال في سوق شعبي يتبادلون سيكارا أو احدا وحين سألتهم أين تعلمتم التدخين؟ أجابوا، في الدرسة..

وهل مازلتم في الدرسة؟

ضحكوا، نحن الآن في السوق، ماذا نفعل في الدارس.

هل تعلموا التدخين فقط في الدرسة؟

تصوير: سمير هادي

علماء نفس واجتماع:

حروب صدام أدت الى تفكك المجتمع العراقي

احمد السعداوي

"هناك شائعة كان يتداولها الناس إبان العهد البائد.. تتحدث عن عالم نفساني ألماني الجنسية إستعان به صدام حسين سراً من أجل معالجة الوضع النفسي السيء لولده عدي العراق بسبب محاولة اغتياله المشهورة.

هذا الطبيب - كما تقول الشائعة - لم يكتف بمعالجة إبن الدكتاتور وتصور أن الوضع في العراق كما هو في ألمانيا، فتحرك بحرية يقوده فضوله العلمي ليكتشف الأمراض النفسية السائدة في المجتمع العراقي.

فذهل حين شاهد الكم الهائل من حالات الشيزوفرينا (فصام الشخصية)، وكان في صدد متابعة حالة مريض يعاني من فصاما نادرا (تسع شخصيات!!) حين قطعت أجهزة النظام الأمنية لجأته الربيبة لتبلغه بأمر مغادرة العراق فورا خذه الشائعة، بغض النظر عن صحتها، تقدم إشارات تملك صداقيتها في الواقع، ففي الوقت الذي كان فيه الدكتاتور يعاني بأدق شؤونه الصحية، بدنيا ونفسيا، كان المجتمع العراقي يعاني مشكلات منظورة وأخرى غير منظورة، تتفاقم وتزداد وطأتها مع إزدياد عمر النظام الأستبدادي وتكاثر مغامراته الرعن.

الآن. وبعد أن غادر هذا النظام وإزلامه، طفت كل المشاكل على السطح، دفعة واحدة بحيث لا يمكن أبدا إقصاء أي مفردة من مفردات الحياة خارج كونها أزمة أو مرتبطة بأزمة. وكل أصابع الاتهام تتوجه إلى الحقبة الماضية. فنحن قادرون على تصديق ما تقوله الشائعات عن الأمراض الاجتماعية والنفسية المتغلغلة في المجتمع العراقي. لأن الشائعة تقول.. (لم يخلف لنا النظام الصدامي شيئا صحيحا أو سليما).

عسكرة المجتمع

هل نعاني من أمراض اجتماعية ونفسية؟ هل يعاني المجتمع العراقي هذه الأمراض ما هي؟.. وكيف السبيل إلى معالجتها؟ سؤال حملناه إلى الدكتور كامل الزياتي، أستاذ الانثروبولوجيا في الجامعة المستنصرية فأجاب.. أن الجانب السلبي من السلوك الانساني موجود في كل المجتمعات البشرية. وعادة ما يتأثر بالسياسات التربوية والثقافية.. فهي التي يمكن ان تضيق من مساحته أو تعمق من وجوده.. أي مجتمع بشري يمر بأدوار من التحول والنمو تشابه تلك التي لدى الأنسان الفرد، وللاحظ ان عملية الانتشال في المجتمع العراقي من التنظيمات العشائرية أو اللاحضارية الى المستوى الحضري أو المدني.. كانت الفئة متعثرة وغير سليمة. فمؤسسات المجتمع المدني كانت مفقودة، وهي عادة من يعول عليها في التحولات المجتمعية، حيث عمل النظام السابق على حل هذه المؤسسات أو إذابتها فاصبحت مؤسسات تمثل خطاب السلطة الدكتاتورية.

وكان من نتاج ذلك أن مجتمع بغداد على سبيل المثال ظل مجتمعا غير متجانس.. ويعيش وضعا انتقاليا مؤبدا وساكنا بين مفهومي القبيلة والدولة. وبإضافة عوامل الاحباط والكبت.. لم تكن منتظرة منه نتائج حسنة لكل ذلك عقب انهيار النظام.

(سؤال): هل كان لعسكرة المجتمع أثر في ذلك؟

(جواب): لا خلال في عسكرة المجتمع، وانما في أدلجة العسكرية، ان الفرد الذي يؤمن بعدالة الحرب التي يخوضها، يختلف عن الفرد الذي يشعر بالعبودية وهو يقاد الى حرب لا يؤمن بعدالتها.. وهذا ما كان يجثم بثقله على المجتمع العراقي.

فالحروب قد تؤدي الى تماسك المجتمع حين تكون مقبولة. ولكن حروب النظام الصدامي ساعدت على تفكيك المجتمع اكثر فاكثر، ودفعت الفلسفة العدوانية لهذه الحروب الى زيادة التوتر داخل المجتمع، بحيث تحول السلوك الى رفض العسكرة إطلاقا، وهذا ما يفسر سقوط النظام السريع.

مجتمع الأمراض

أما الدكتور صبيح جبر الركابي /اختصاصي علم اجتماع طبي فقال، ان الفترة الماضية خلقت لنا جملة من الأمراض السايكوسوماتية، وهي الأمراض النفسية التي تؤدي الى ظهور أعراض عضوية، كالجهاز الهضمي خصوصا تهيج القولون الذي ينتشر في المجتمع العراقي بشكل غير مألوف.

أن الرعب والإرهاب الذي كان يعانيه الفرد العراقي دفع به الى العزلة وتحاشي المشاركة الاجتماعية قدر الامكان. ويرأيي أن المجتمع يعج بما لا يحصى من الأمراض النفسية والاجتماعية إضافة الى تلك الأمراض البدنية، ويجب أن لا نهون من حجمها.. من اجل التصدي لجاد لمعالجتها.

مصحات

الدكتورة بشينة منصور الحلو / استاذة علم النفس جامعة بغداد حددت المشكلة النفسية والاجتماعية للفرد العراقي بثلاث مفردات، التهديد، الفقدان والتغيير. فهو كان مهددا دائما ويعاني الفقدان، ويتعرض لتغيرات اجتماعية واقتصادية فجائية. مما ولد لديه حالتي صراع واضطراب تؤدي الى تقديم استجابات غير مستقرة. لذا أرى واحدا من آثار ذلك ان الشخصية العراقية تتميز بحدتها الانفعالية. وبرأيي أن أي سلطة عراقية قادمة يجب أن تركز على توفير مصحات نفسية ملحقة بمراكز بحوث تجهد في معالجة آثار الفترة السابقة.

- هذا الكلام دفعنا الى التساؤل.. هل سيتمكن الفرد العراقي، الذي عودته سلطة الاستبداد على الصمت، من التعامل مع نظام يخلو من العنف؟ اجابتنا الدكتور خالدون وليد/ علم نفس اللغة .. ان الشخصية العراقية متكيفة مع مبدأ القوة.. وهذا انعكس على العلاقات بين الأفراد كما ان كره القوة والتسلط خلف كرها للقانون.. مما سهل عدم احترام القانون بعد سقوط النظام. ومن ثم يجب- كجزء من الحل- أن تطبق القوانين بقوة صارمة. إستنادا الى نظرية التناشز المعرفي التي تقول.. أن الانسان يغير اتجاهاته نتيجة قيامه بالعمل. ودعا الدكتور خلدون في نهاية حديثه معنا الى فتح مكاتب الارشاد النفسي، والتي لم يكن النظام السابق يسمح بفتحها.

وسائل مزيفة

الدكتور مهند محمد عبد الستار /أستاذ مساعد في قسم علم النفس جامعة بغداد.. شارك في الأجابة على أسئلتنا حيث قال، ان المواطن العراقي كان يرزح تحت سقف عال من الضغط النفسي.. فالعائلة التقليدية في كل جوانب الحياة.. جعلته دائم الاستشارة، فلم يعد يؤلمه اي حدث مهما كبر أو صغر .. ويصف علماء النفس هذه الحالة بـ (العجز المتعلم)، وهو سلوك مزيج من الألم الدائم والأحساس باللامبالاة وعدم الثقة بالمستقبل، وان القادم من الأحداث لا يمكن أن يكون بمستوى الطموح.. بسبب كم التوقعات السيئة التي مر بها الإنسان. وللأسف أصبح هذا الأمر جزءا من شخصياتنا، فلا نجد الان امكانية متكاملة ومتحمسة للمبادرة والعمل.. أو القدرة على تغيير الواقع.. وهذا واحد من أقسى ما خلفه النظام الدكتاتوري لنا.

ان الشخص العراقي عانى لفترة طويلة ازدواج الشخصية والتناقض.. فهو يؤمن بشيء ولكنه يضطر الى عمل شيء آخر. وهذا ما خلق لديه شعور أمزمنا بالقلق والضيق وعدم الارتياح. وكثيرا ما تضطر هذه الشخصية الى تخفيف حدة القلق بوسائل مزيفة وغير منطقية، مما ولد سمة اخرى في الشخصية العراقية، التبرير.

الكثيرون يحتاجون الى مصحّات نفسية!